القسم الثانى

تحفظات وتساؤلات

الفصل الأول

التعالى

إن الصورة التى أخذناها عن الشخصانية الإسلامية ، فى القسم الأول من هذه الدراسة لا تخلو من إبهامات وثغرات . فالعروض السابقة تثير مشاكل من الأهمية بحيث لا يستطيع الباحث أن يغض الطرف عنها . سيعمل هذا الفصل على إبراز ما يبعث منها على الاضطراب مع توجيه البحث نحو ما يمكن أن يوصلنا إلى بعض الحلول .

يعتبر الإسلام الشخص كائناً خلقه الله ، قبل كل شىء ، ليعبده : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات ٥١ آية ٥٦) لكن يجب أن نتساءل : ألا تحرم تلك الغائية الشخص من كل غاية — فى — ذاته ؟ وهل يترك هذا الاستلاب مجالاً لـ « شخصانية إسلامية » ؟

لو أن أصحاب « علم الكلام » حاولوا أن يردوا على هذا الاعتراض لما وجدوا إلا جواباً وحيداً هو : أن الله هو التعالى المطلق ، ومخلوقاته ليست جزءاً منه ، ولا فيضاً عنه ، ولا تجسداً لكينونته . الله خلق الإنسان ، والكون ، ولكن مفهوم « خلق » هنا يتجاوز الذهن الإنسانى . أليس دور الوحى ، فى واقعه ، إلا تعويضاً عن نقص إدراكنا ؟ ينير الوحى لنا الطريق الذى يسير بنا إلى أن ندرك التعالى الإلهى . فالوحى يوقظ مشاعرنا ويفتح وعينا على بشريتنا وطبيعتها المحدودة .

هذه الإجابة ، كما نرى ، عوضاً عن أن تحل المشكل المطروح ، قد تثير مسألتين أخريين ليستا أقل إشكالاً : الأولى خاصة بالتعالى والثانية بالوحى .

فمن السهل على أصحاب الكلام ، وعلى أصحاب اللاهوت بصفة عامة ، أن يعترضوا بما يأتى :

« ما الذى يجيز لكم أن تضعوا مشكل التعالى الإلهى طبقاً لخطاطة من الأفكار والمقولات تكونت فى ميدان غير دينى ؟ »

بماذا تبررون موقفكم عندما تطبقون المنطق (الصورى ، أو الديكارتى ، أو أى منطق آخر) على ميدان المعتقدات ؟

فللإيمان منطقه الخاص ، كما للعواطف منطقها . وحتى فى الفيزياء ، ألا تتغير مقولات الفكر عندما ننتقل من العالم المتناهى فى الكبر (مثلاً : عالم الأفلاك) إلى العالم المتناهى فى الصغر (مثلاً : عالم الذرات والجراثيم) ؟ لذا كان من الملح بأن نفصل بين الحياة الذهنية الدينية ، وبين الحياة الذهنية فى الميادين الأخرى .

ربما كان رد المتكلمين ، هذا ، مقبولاً ، . فليس هناك ، لا مبدئياً ولا عملياً شىء يتعارض وذلك التمييز بين الميدانين . بيد أن المتكلم لا يفسر سر التعالى ، وبالتالى لا يحل المشكل المطروح . إنه رد لا يفعل أكثر من وضع المشكل فى منظار يختلف ومنطقنا المعتاد .

وأخيراً ، فحتى لو فرضنا أن المنكرين للمعنويات على حق ، واقتنعنا بدعواهم (أن كل ما ليس خاضعاً للحس والزمان والمكان يصبح موضع تساؤل وريب) جاز لنا أن نطالب أولئك المنكرين بأن يبرهنوا ، مثلاً ، على وجود الزمان بنفس منهجهم .

* * *

١

هل للزمان وجود ؟

سؤال يضعه الفلاسفة والعلماء واللاهتيون ، ولكن لا أحد استطاع ، منذ غابر « الأزمان » ، أن يعطى جواباً يريح قلق الفكر بخصوص هذا الموضوع ، فعندما ننظر إلى القضية ، نجد أن الماضى قد فات ، والمستقبل لم يأت ، ولا وسيلة لتثبيت الحاضر . أما « اللحظة » ، أو « الفترة » ، أو « الآن » ، أو « الحين » ، فلا يجوز لنا التحدث عن أيها إلا إذا اتضح لنا ، مسبقاً ، مفهوم « زمان » . إنى الآن أبحث فى الزمان . ولكن : ما « الآن » ؟ إنه « فترة » أو « لحظات » ، وهذا ليس تعريفاً ، بل دوراً وتسلسلا ، لأننا دخلنا فى حلقة مغلقة من المفاهيم ، كلها مجهولة لدينا ، ومع ذلك نحاول تحديد بعضها بالآخر !

ومن جهة أخرى ، لنا عن « الآن » صورة غامضة ، لأنه يدل على « شىء موهوم بين ماض انتهى ، ومستقبل لم يحصل بعد . ثم إن الزمان لا يقف لنثبت أقدام ومعالم « الحين » و « الآن » ، إنه تتالى .

فهل نستنتج من هذا أن الزمان غير موجود ؟

أنجعل لفظة « زمان » مرادفة لـ « عدم » ؟

طبعاً لا . إن الزمان موجود وجوداً نحسه ونحياه . إننا نتحرك ، والحركة تقضى الزمان ، ولنا ذاكرة ، والتذكر يثبت « ماضينا » ، ولنا مخيلة ، والتخيل يفترض أنماطاً : الزمان الحاضر (حاضر العملية) والماضى الذى يأوى إليه التخيل ليقتبس أطراً للانطلاقات التصورية والمقارنات ، والمستقبل الذى تربده المخيلة مأوى للمشاريع المتخيلة .

فوجود الزمان ، وجود لاصق بوجودنا ، ولا يقبل العد والكم ، إلا بعد أن نحياه . إنه لحمة التأريخ ، ولكن لا تأريخ بدون تآريخ حى ، صار أو يصير[1] .

---

(١) انظر الفرق بين تأريخ ، وتاريخ ، فى م ، ف .

٢

الوحى

ذلك فيما يتصل بالتعالى . أما فيما يخص الوحى ، فباستطاعة المتكلمين أن يجيبوا هكذا : إذا أخذنا الوحى ، فى المعنى الذى نجده بالقرآن ، أصبحت المسألة أقل إشكالاً . هدف الوحى هو أن يرشد إلى الصراط المستقيم ؛ « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة ٢ آية ٣٨) . فالوحى ، فى أساسه ، هداية وتوجيه ، وبهاته الصفة يعين الشخص على أن يتحقق ، أخلاقياً وروحياً ، ويتفتح داخل عالم حيث الله يدبر النظام ، ويهيمن على أسراره . ذلك أن سير الكون ومصير الإنسان لا يضعان لنا مشاكل محيرة ومقلقة فحسب ، بل يلجان بنا عوالم الغموض والعماء . وأمام هذا الوضع ، يتجلى دور الوحى فى أن يغمر المؤمنين باطمئنان ميتافيزيقى ، وأن يمنحهم الأمل ، فيجعلهم يتغلبون بالحياة الروحية على التمرد والعبث .

لا غرو أن الأنبياء المكلفين بتبليغ الوحى ليسوا سوى مرشدين ، بالنسبة لمجموع الآخرين الذين هم أنداد لهم (أونطولوجيا) وإخوانهم (إنسانياً) . لكن ميزة الأنبياء المرسلين الكبرى هى صلابتهم فى الدفاع عن الحق والخير ، بـ « الدعوة » المستديمة ، وبالسلوك اليومى ، فى كل عمل : إنهم هداة يجعلون من حياتهم نموذجاً قويماً يحمل معه شهادته على نفسه :

« وجعلناهم [الأنبياء] أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وكانوا لنا عابدين » (الأنبياء ٢١ آية ٧٣) .

إن لفظة « عبادة » ، الواردة فى هذه الآية ، لا تنحصر فى القيام بالشعائر الدينية ، وبترتيل سور من القرآن . فعبادة الله تكون ، أيضاً ، عن طريق الشغل كما يؤكده الحديث : « الخدمة على العيال عبادة » و« عيال »، معنى ضيق ، وآخر يدل على مجموع الإنسانية ، كما يتضح ذلك فى حديث آخر : « الخلق

كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله »[١] . ويعد « عبادة » ، كذلك ، احترام القيم الأخلاقية والروحية ، على اختلاف المستويات . فالذى يعمل جاهداً على انفتاح شخصيته ، أكثر وأحسن ما يمكن من التفتح ، يعبد الله لأنه يصون رائعة من الروائع التى أبدعها تعالى : الإنسان . فالشخص ، عندما يؤنسن ذاته ويؤنسن ما يحيط بها ، يرمى إلى تحقيق الكمال والتعالى ، ليجعل من العالم شيئاً جميلاً . و « الله جميل يحب الجمال » . فالمخلوقات الجميلة (أى التى تنزع إلى اكتمال الحسن) تشهد لمبدعها بالقدرة والروعة . إن الوحى يسهل السير فى الممشى الموصل إلى هذا النوع من العبادة ، كما يدلنا على الأنواع الأخرى ، العفوى منها والمقنن . فالكون ، بمجموعه ، مجال لا محدود لآيات الله : الصخرة ، وينبوع الماء ، والشجرة ، والنجمة ، والنملة ، والفكرة الناضجة ، كلها من آيات الله :

« تسبح له السماوات السبع والأرض ، ومن فيهن .

وإن من شىء إلا يسبح بحمده » (الإسراء ١٧ آية ٤٤)[٢] .

* * *

الاعتراض الممكن توجيهه هنا ، هو أن هذا لا يماشى المعطيات « العلمية » ولا يعتمد على أى منهج « علمى » .

يجوز للمتكلمين أن يسألوا بصدد الاعتراض السابق .

أيكفى لصنف من أصناف العلوم أن يصل إلى حد كبير من الدقة والتطور ، ليفرض طرقه فى البحث ، على الميادين الأخرى ، وينتصب رائداً ومعياراً ؟

فإذا كان لنوعين من المعرفة موضوعان مختلفان لزم أن يتوفر كلاهما على منهج مغاير ، بالضرورة ، لمنهج الآخر ، مهما بلغت درجة تطور هذا أو ذلك ، فنمو منهج ما لا يعطى كمعيار خارج ميدانه .

---

(١) يؤكد هذا رسول الإسلام ، مرات ومرات ، كما فى قوله : « الناس كأسنان المشط » . انظر المرشد فى الدين الإسلامى ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

(٢) انظر كذلك : النور ٢٤ آية ٤١ – الحشر ٥٩ آية ٢٤ – الصف ٦١ آية ١ .

٣

فكرة الإلحاد

يؤمن المسلم بوجود الله ، وتلك تجربة ذاتية . فمن حيث إنها شخصية ، لا شيء يثبت لنا أن تجربة المنكر لوجود الله غير حقيقية . أليست هي كذلك ، تجربة شخصية يحياها الملحد ذاتياً وبصدق ؟ إذا كان الله موجوداً ، فهو موجود بالنسبة للجميع . فكيف جاز حصول إنكاره ؟ لقد أكد القرآن أن الله قد شاء أن يكون خافياً على البعض وجلياً بوضوح للآخرين : « هو الأول ، والآخر ، والظاهر والباطن » (الحديد ٥٧ آية ٣) .

فالله هو « الأول » ، أي منبع كل الموجودات (والملحد أحدها) ، وعن مشيئته تعالى تصدر كذلك الآراء والتجارب (كالشك في وجود الله) ؛ والله هو « الظاهر » ، أي بآثاره الدالة على وجوده (وهل الكفر إلا مظهر لعمليات تفكير شخص ينكر ؟) . فالملحد ليس بمسئول عن إلحاده ، لأن الله « باطن » ، فلا تحيط به الحواس ، ولا تصل إلى إدراك حقيقته العقول ، لأنها حقيقة متعالية . والقرآن يقر بأن إمكانية الشك والإنكار ضرورية لامتحان الإنسان والسماح له بالحيرة والتعبير عن حريته الكلية . وليس رفض « المطلق » إلا تأكيداً لحرية المرء ، تلك الحرية التي يرتضيها الإسلام :

« وقل : الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ! ومن شاء فليكفر ! » (الكهف ١٨ آية ٢٩) .

فهل من حرية إذا لم يكن بمستطاع المرء أن يرفض كل فكرة قطعية تعسفية يسلم بها لأنها مسايرة للعادات السائدة ؟ فالقرآن يوبخ كل إمعة : « . . . ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » (الزخرف ٤٣ آية ٢٣) . ويضيف القرآن ، ساخراً من التقليد

والمقلدين : « قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » . (المائدة ٥ آية ١٠٤) ، « . . . بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ! » (الشعراء ٢٦ آية ٧٣) . فالإسلام ، إذ يمقت التقليد ، يمقت « الإيمان » الذى يسر به العماء الفكرى . إن وظيفة الوحى أن يبلور تجاربنا ، ويذكى الحدسيات والذوقيات ، ويصقل ما هو من طبيعة البرهنة العقلية ؛ « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة » (الأنفال ٨ آية ٤٢) .

* * *

ليس من أدلة علمية على وجود الله ، أو نكرانه ، ولا يمكن ذلك . فالعلم ، على مستوانا ، لا يطمع فى أكثر من معرفة العالم (الذى هو موضوع العلم) . إن النسبية تسيطر على مجموع قدرات العلم ، فلا تترك له أى مجال ولا أية طاقة لينزع إلى المطلق . يتخذ الباحثون الكون بمجموعه (نعنى الطبيعة والإنسان) موضوعاً لدراستهم . لكن الإنسان والعالم كلاهما يمثل معضلة فى نطاق ذاته ، وفى علاقات كل منهما بالآخر : الإنسان ، والعالم لا يحملان تفسيرهما فى ذاتيهما ، بل يتضحان معاً ، ويتجليان الواحد بالآخر .

من هنا ، نستنتج أن من كان لا يستطيع الأقل ، فبالأحرى أنه عاجز عن الوصول إلى الأكثر . وأمام هذا العجز المركب المربك ، ماذا يتبقى للإنسان لتهدئة قلقه الميتافيزيقى والفكرى إذا لم يكن يعترف بأن الله هو « الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » ؟ (الأنعام ٦ آية ١) .

يجتهد العلم ، ما وسعه الاجتهاد ، ليبرهن على صلاحيته الخاصة ، ولكن طبيعته الوظيفية تمنعه من أن يبرهن على ما هو أجنبى عنه . فالعلم ، إذن ، محاصر فى ميادين خاصة ، بالرغم من تعدد جوانبها ، لا تستطيع إرواء ظمئنا الميتافيزيقى ، ولا شحن ذهنيتنا بالسكينة ، ولا إبادة القلق من وجداننا . فأنى لهذا العلم أن ينفذ إلى استكناه المطلق فيثبت أو ينفى وجود الله ؟

* * *

يدعو الإسلام إلى التأمل والحدس واستعمال النظر كى يصل الإنسان إلى أن يمارس التجربة الباطنية لوجود الله « الذى خلقكم والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون ،

الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم . فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ! » (البقرة ٢ آية ٢١ و ٢٢) .

ويضيف القرآن : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ » (الذاريات ٥١ آية ٢٠ و ٢١) .

إن هذا النوع من التأمل الذى يدعو له القرآن تأمل خاص . فهو ، وإن حث على المشاهدة ، يتعمد عدم مخاطبة العقل المنطق ، لأن المعقولية مكتسبة ، بوصفها حصيلة لتمرينات ، كما أن العقلانية ، هى أيضاً ، صناعة مكتسبة ، فأنى لهما حق التشريع فى ميدان أصيل كميدان الصميمية ؟ الحب لا يعترف بأى منطق ، وان يستطيع أحد أن ينكر وجوده (باسم المنطق) ، والإيمان ، هو أيضاً ، حب يحيا ، وليس معادلة رياضية أو قضية منطقية : إنه كالحب ، يعاش من الداخل ، فى تجربة شخصية فذة ، تجربة مساهمة ، ما دام ليس فكرة مجردة يلزم إدراكها . فيجب أن نحس ونحيا ما نريد إدراكه ، قبل العمليتين الأساسيتين لكل تفكير مفهومى : التجريد ، والتعميم .

إن نقطة البداية ، فى الحب وفى الإيمان ، هى الاستبطان : الشهادة المنبثقة من أعماق الكائن البشرى. إننا نبنى معارفنا التاريخية على شهادات الغير ، فلم لا يجوز لنا أن نؤسس اللاهوتيات على شهادات حية نعيشها ، مباشرة ، أو نشاهدها مجسدة فى سلوك وحياة الآخرين ؟ المحب لا يحتاج إلى برهنة ليقتنع بأنه يحب، فالمحبوب هو الذى قد يتشكك فى حب محبيه ، فيطالب بحجج على صدق الحب. والمؤمنون يحبون الله ، والله لا يحتاج إلى برهنة ليقتنع : « أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ؟ » (العنكبوت ٢٩ آية ١٠) . فالشعائر الدينية لا ترمى إلى البرهنة على وجود حب وإيمان ، ولكنها تغذيهما باللحظات الممتازة التى يشعر فيها المحبون بحضور المحبوب ، بمتعة الاقتراب والحوار .

* * *

من ذا الذى يستطيع أن ينكر ، باسم العقلانية ، وجود « الحنين إلى الوطن » ؟ إنه شعور مشترك يثور ، هو أيضاً ، على التمنطق ، فلا يشك فى وجوده إلا من لا وطن له . كذلك الحنين إلى الله . فالله وطن المؤمنين : « الذين إذا أصابتهم

مصيبة ، قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون » (البقرة ٢ آية ١٥٦) .

فالذى لم يمارس ، مباشرة ، تجربة الإيمان ، لن يؤمن ، أبداً ولكنه ، كذلك ، لن يستطيع البرهنة على أن الإيمان عبث أو ليس واقعاً معاشاً .

ومن جانب آخر ، إذا لم يحى المرء وجود الله ، من باطنه ، ومن خلال تفاعله مع آيات صنعه تعالى ، لابد من أن تجابهه معضلات ميتافيزيقية ، فتلاحقه وتصارعه ، ويضطر للإجابة على مثل هذا السؤال :

« من يحيي العظام وهى رميم ؟ » (يس ٢٦ آية ٧٨) .

ويعقب القرآن السؤال بالجواب الآتى :

« يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم [. . .] أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ — بلى ! وهو الخلاق العليم » (يس ٢٦ الآيات من ٧٩ إلى ٨١) .

فوجود الله يتطابق والمعنى الذى نعطيه لحياتنا عندما نعرف كيف نكوّن أنفسنا : إنه السلام ، والرحمة ، والحكمة : « عالم الغيب والشهادة . هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن [. . .] هو الله الخالق ، البارئ ، المصور ، له الأسماء الحسنى » (الحشر ٥٩ الآيات من ٢٢ إلى ٢٤) .

قد تبلغ بعض المرئيات حداً من الضآلة أو الصغر حتى لا يقدر البصر على أن يراها . فهل ننكر ، مثلاً وجود الجراثيم لمجرد غيبتها عن الحقل البصرى ؟ إن بعض الآلات . لقوة حركتها تتراءى لنا كأنها جامدة . فمثلاً ، يقل ، عند الركاب ، الإحساس بسير الطائرة النفاثة بقدر ما تزداد سرعتها . فسرعة الحركة لا تنفى وجود الحركة ، بل على العكس ، تؤكد تزايدها ، وإنها تخرج عن نطاق إدراكنا المباشر . فوجود الجرثوم ، أو الحركة ، أو السرعة ، موجود بالقوة وبالفعل ، ولكنه منعدم بالنسبة لمستوى عتبات إدراكاتنا الحسية . فى محاولة إدراك وجود الله ، داخل تلك العتبات ، تناقض منطقى وتعسف على الحواس لا مبرر له .

* * *

إن ما تؤكده « الشهادة » ليس هو وجود الله ، لأنه وجود غير محسوس (وتلك خاصيته الصميمية): إنه وجود لا كالموجودات . فلِمَ يريد المتكلمون إخضاعه لعقل يتمنطق، ولعلم يغرق فى الكيف والكم ؟

فأما أن ينبثق الإيمان بوجود الله ، عن الوجدان ، عن القلب ، تلك المضغة ذات المنطق الخاص والمنهج الخاص ، وإلا تجمد مفهومنا لكينونة الله، ولم يعد الله الجوهر الأكبر ، جوهر كل الموجودات . فغلطة المتكلمين الكبرى فى كونهم لم يعوا هذا الفرق ، فأتت مناقشاتهم غير ذى خصب ، وبدون حرارة .

تكتفى الشهادة بأن تنفى تعدد الآلهة ، لتثبت وحدانية وجود الله . فالشهادة (فى صيغتها التقريرية ، بوصفها « نطقاً باللسان» ، طبقاً لقواعد صوتية ولغوية) تخضع لمنطق المحسوسات : تنفى التعدد حتى لا يحصل تناقض فى الاستنتاجات ، والوجود الأسمى يتمتع بالكمال ، ولا كمال مع التعدد ، إذن : « لا إله إلا الله » . فى الشهادة تكامل بين نفى وإثبات بين « نعم » ثقيل الوزن ؛ و « لا » صارمة .

ومن جهة أخرى : إن ما تؤكده « الشهادة » لا ينال كامل الاعتبار إلا لأن المرء يتمتع بإمكانية النفى . فالاعتراف والنكران جانبان لنفس الفعالية التى يتعرف بها الإنسان على ذاته وهو يعى الأشياء . وإدراك شىء ما يكون، إما مباشرة ، أو بواسطة، واضحاً أو غامضاً ، تاماً أو ناقصاً . لكن ، مهما يكن الأمر ، ليس باستطاعة المعرفة أن تدعى أنها تصل إلى استيعاب الشىء المعروف استيعاباً شاملاً تاماً ، إذ كثيراً ما يتبقى مجال ممكن للتأويلات الخاطئة، وللمعرفة الناقصة : هكذا تتعرض حقيقة كل إثبات إلى درجة ما من الشك ، إن قليلاً أو كثيراً ، لكنها واقعية ، ولو على صعيد الحقائق العلمية :

« إنا عرضنا الأمانة على السماوات ، والأرض ، والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان . . . » (الأحزاب ٣٣ آية ٧٢) .

ليعبر الإنسان عن الحرية ، أبى إلا أن يتحمل « الأمانة » : تقبلها بعزم قوى، فالتزم وأصبح مسئولاً ، أصبح مسلماً[١] . فلو أن الإنسان امتنع عن قبول

---

(١) من بين معانى لفظة « إسلام » الخضوع : الاستسلام لله ،واحترام الوعود مع الله ومع الآخرين والخضوع للمبادئ الأخلاقية وللقوانين الطبيعية . =

« الأمانة » ، عن طواعية وحرية ، لكان الرفض ، هو أيضاً ، نوعاً من الاختيار والحرية (بالرغم عن كونه ، من الناحية الدينية ، « جحوداً » و « كفرا ») .

* * *

من الممكن لمعترض أن يسأل :

أليس الإلحاد مظهراً للقضاء والقدر ، تلك القوة القاهرة التى لا مفر من ربقتها الغاشمة والتى تسد كل منفذ أمام الحرية ؟ فالملحد مقيد لا مخير لذا فهو مسئول .

نعم هناك مفهوم « قضاء وقدر » فى الإسلام . إلا أنه لا يتعارض مع الحرية الإنسانية . أكثر مما تتعارض هذه مع مختلف القوانين الدستورية التى تسير المنشآت ، ومع المراسيم الجديدة التى تصدر فى كل عدد من أعداد « الجريدة الرسمية » ، لتنظم ، وتقنن ، وتعقلن الحياة المعشرية .

نفس الشيء بالنسبة لبيئة تعترف بأن الله هو خالق الكون والمهيمن على مصيره وعلى مصير جميع الناس . فالله ، إما طاغية تعميه قدرته القصوى . فيتصرف دون اعتبار أى قانون سلوكى . مرة « يشرِّق » . وأخرى « يُغرِّب » . كما يشاء له استبداده المطلق . وإما أنه رب مدبر ، يلعب دوراً دون أقنعة ، حسب نواميس تسمح لكل مخلوق بأن يمارس الحرية والمسئولية . كامل الممارسة .

فالله فى الإسلام ، « يقدر » و « يقضى » ، طبقاً لتدبير محكم مسبق . وإلى حتمية حكيمة طبيعية فرضها فى تسيير الكون : « فلن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا » (فاطر ٣٥ آية ٤٣) . إنها سنة ذات شمول واستمرار ، مما يجعلها قانوناً يطمئن له العلم والعقلانية : « سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » (الفتح ٤٨ آية ٢٣) . فالفرق واضح بين إله يضع تصميمات محكمة ، ويدبر الكون على ضوئها ، وبين الـ (فاطوم Fatum) عند الرومان ، ذلك القدر الأعمى الغاشم ، والجبرية المتطرفة الهوجاء .

* * *

= يدل الجذر (س . ل . م .) على الخضوع وعلى السلامة (صحة الفكر والجسد) ، وعلى السلام والمسالمة . كل تلك المعانى ، فى واقعها ، ترمى إلى الانسجام والتناسق مع الذات ، ومع الله ، ومع الآخرين ومع الكون .

الدين معطى وجدانى لا يعارض المنطق ، وإن كان لا ينجلى عن قياس . أو استنتاج ، أو استقراء . إنه معطى يتموقف فى مستوى القيم العاطفية التى ينطلق منها الشعور — بالذات حيث يتعرف كل فرد على آنيته وأناه ، ويؤكد وجودهما . فلمَ نركز إثبات الذوات ، بهذه الطريقة التى لا تخضع لمقولات المنطق (أو المناطق)[1] ، دون أن نرى فى ذلك حرجاً ، ونرفضها إذا أريد الاعتماد عليها فى إحقاق التجربة الوجدانية لوجود الله ؟

(فالأخراويات) والماورائيات ، والعلويات ، حقائق لا تمنطق بالطرق العادية . إنها من صنف الحقائق التى تُحيا ولا تُعرض مموضعة ، مثلها كمثل بعض الحالات الوجدانية العميقة ، بل مثلها كمثل الحياة ، سواء بسواء : إن الحياة تشبه البحر المحيط ، فى المد والجزر ، وفى صراع أمواجه اللا — منقطع ، ولكنه يستحيل علينا أن نحدد أية موجة لنجعل منها « الموجة — النموذج » ، مهما تشابهت مع أخواتها . فكثرة الأمواج ، وسرعة تجددها تجلوان كل موجة كـ « وحدة — فى — ذاتها » . إن البحر ، وهو يزأر موجاً ، يبهرنا بقوته وشبابه المدهشين .

الواقع أن الحياة لا تسرى ، عملياً ، إلا فى القلة القليلة من البشر : من ورائنا أكثرية « كانت » ولم تعد تؤثر إلا بثقل موتها ؛ ومن أمامنا أولئك الذين « لما يوجدوا بعد » و «سيوجدون » و « سوف يوجدون » ، ثم يوجدون . . . أما « الحاضر» ، فليس فيه إلا السائرون توّاً إلى مصير ذى بابين ، أولهما مفتوح على موت حتمى يحمله كل حى فى صميمية الحياة ، وباب مغلق يمكن للمنطق وللعلم أن يسمياه بـ « اللا — ندري » ، أو بسر الأسرار ، أو بمملكة الغموض . ويأتى الدين ، دون أن يناقض العلم والمنطق ، فيعطى فروضاً يسكن إليها وجدان بعضنا . وكثيراً ما تكون فى تلك السكينة سعادة القوم الذين آمنوا فيزيحون حمل الغموض الثقيل .

* * *

العلم يلاحظ ، ويحكى ، ويصف ، والأخلاق تأمر ، وتنهى ؛ أما الدين فيجمع بين وظيفتيهما ، ويفتح مجالاً واسعاً لإيحاءات يمكن للعالِم وللأخلاقى وغيرهما

(١) قد اضطررنا لاستعمال كلمة « مناطق » ، كجمع لمنطق ، إذ يعرف الفكر المعاصر عدة أنواع من المنطق .

أن يستغلوها لمصلحتهما ولمصلحة الجميع . هذا مطمح الدين . إنه سبيل إلى الله ، على طريق الحرية : « لا إكراه فى الدين » (البقرة ٢ آية ٢٥٦) . فلو أن الإسلام بنى على الإكراه لتناقض وطبيعة الدين : كل مغامرة روحية وعاطفية لاتتم إلا بالعطاء والتجاوب بين التجربة الداخلية والأعمال ، أى بالنية الحسنة . « إنما الأعمال بالنيات » (حديث) .

عند الكثرة الكثيرة من الأفراد يتقبل الواحد ذاته بطريقة عفوية ، فيتحدث عن « أنا » ، وعن الـ « نحن » كمسلمات لا يتسرب إليها شك ، كمعطيات أولية من باب « السماء فوقنا » ، دون تساؤل عن كيف يتجلى الإنسان فينا ، ولا كيف نعى ذاتنا . إنهم يقنعون بتجربتهم العفوية .

* * *

اعتراض آخر : جاء فى حديث رواه البخارى ، وقد أشرنا إليه سابقاً ، أن الله « خلق آدم على صورته » فبما أن الإله لامتناه ، فى حين أن الكائن البشرى متناه ، كيف يجوز أن يكون الثانى على صورة الأول ؟[1]

هناك تآنى بين وجودات فى الزمان[2] ، لا فى الأبدية والخلود . وهناك أحداث تتتابع إلى ما لا نهاية له ، ولكن على إيقاعات مختلفة . فإذا كان من صفات الله الخلود ، فالكائن البشرى يتحرك فى منظار لا منته ، منظار الـ « ما ــ بعد » أى « الآخرة » حيث تتمتع الأرواح ، هى أيضاً ، بالخلود . فالموت ليس إلا حداً ظاهراً ، ويتحلى الله بالقدم . لكن الإنسان ، وإن كان « حادثاً » فى تاريخ التكوين ، قد اكتسب قبساً من الأبدية لأن خلقه كان فيضاً مباشراً من روح الله القديم « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون » (ص ٣٨ الآية ٧١ و ٧٢)[3] . فالآية تدل على أن الله يتحدث عن الإنسان ولما يخلقه بعد « فإذا سويته » . إنه موجود « بالقوة » ، فى علم الله وتصميماته ، على صعيد « القدم » ؛

---

(١) انظر ص ٥٤ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : « تآنى » فى م . ف .

(٣) انظر ، كذلك : السجدة ٣٢ آية ٩ .

وأما وجوده « بالفعل » ، الوجود المحدث ، فسيتم بعد أن ينفخ الله فيه من روحه .

إذن طبيعتنا مزدوجة : أبدية وخلود ، بالجوهر ؛ وحدوث متناه ، بالوجود الآدمى .

وهذه الازدواجية لهى مصدر عطشنا الروحى ، وتوقنا إلى التعالى ، إلى تجاوز دنيوية الوجود ، واستبار ينابيع الوجدان الدينى ، وغير الدينى . إن الناس يشعرون باندفاع قوى نحو تجاوز الذات ، نحو ملء فراغ الوجدان ، وإذابة اليأس ، والقنوط ، والقلق ، والكآبة ، فى رؤية باسمة تجعلهم يأملون ويستأنسون بالذى لا حزب له ، ولا عصبية ، ولا جنس : ذلك الذى كان ، وسيبقى ، لا يؤثر فى جوهره مؤثر والذى جعل الناس بالتساوى الكامل ، وكأنهم « أسنان المشط » كما جاء فى حديث نبوى[1] .

لقد أعز الله الجنس البشرى فأبدعه بنفخ من روحه . و « النفخ من الروح الإلهية » ينفى حلول الله فى أية ذات بشرية ويصون تنزيهه ، وفى الوقت نفسه ، يصعد بالإنسان إلى الاتصال الروحانى بالله . فلا تجسيد للألوهية فى الإنسان ، فى أي إنسان ، ولا هجران وانفصام عن الخالق : إنه لنفخ تكرم به الله على البشر عامة ، ليظهر أفضليتهم على باقى الكائنات .

---

(١) المرشد فى الدين الإسلامى ، ج ٤ ، ص ٢٢ .

٤

موقف الشخص إزاء قدرة الله المطلقة

رمت محاولاتنا السابقة إلى تحديد مفهوم « شخص » فى الإسلام، من الجانب الأنطولوجى (المعطيات النشوئية) ومن الجانب الأخلاقى (أى فى علاقاته بالآخرين وبالعالم) ، لنبرز ما للشخص من حرية ترتكز عليها مسئولياته . وبعد أن حددنا معنى التعالى ، ومعنى الوحى ، ومفهوم الإلحاد والإيمان ، نتساءل الآن عن موقف الشخص (الكائن المتناهى) من الله (الكائن المطلق) .

* * *

يترتب ، على ما سبق ، مشكل آخر :

إن الشخص ، برغم استقلاله الذاتى ، وحريته ، وقدرته على المبادرات ، ومواهبه ، يبقى تحت تصرف مشيئة الله ، وهى مشيئة لا متناهية ، ومطلقة ، وقديمة ، فى حين أن الإرادة الآدمية (على المستوى الدنيوى ، مستوى الوجود — بالفعل) متناهية ، ونسبية ، وحديثة . فطرفا المواجهة ، إذن ، غير متعادلين .

يجوز هذا الاعتراض ، من خلال رؤية مجردة : فلا شىء بقادر على الحد من قدرة الله المطلقة . لقد كان ممكناً له تعالى أن يطرح ، كلما شاء ، قضية حرية الأشخاص واستقلالهم — الذاتى ومواهبهم .

لكن نظرة ممعنة فى القرآن والسنة تجعلنا نستخلص أن إرادة الله ليست اعتباطية مخاذلة ، بل حكيمة مدبرة : خلقت نظماً ، وجعلت للكائنات أطراً وغايات . فما خلق الله « السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى »(الروم ٣٠ آية ٨) والشمس : « تجرى لمستقر لها » (يس ٣٦ آية ٣٨) طبقاً لقوانين طبيعية أبدعها الله عن إرادة وقدرة ، وأخضع لها سير الكون : « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » . (الأحزاب ٣٣ آية ٦٢)[١] .

---

(١) انظر كذلك : الإسراء ١٧ آية ٧٧ — فاطر ٣٥ آية ٤٣ .

لقد أسبغ على الكون والكائن البشرى كل إمكانيات تحقيق الاستعدادات الفطرية التى وهبهما إياها . يرتبط الشخص طبيعيًّا ، بجسده ، والجسد مرتبط ، حياتيًّا ، بالعالم ، والعالم فى صيرورة . وإن الصيرورة لبعد من الأبعاد المشتركة بين الكون والإنسان ، وأداة وصل بين زمان الحدوث وبين الأبدية والخلود . لذا ، لا تناقض فى علاقات الكائنات (المحدثات) بإرادة الله الحى الباقى . فلو كان تناقض لما تعارف الناس على قواعد عامة ، ثابتة ، فى سير الظاهرات الكونية ، أى لانْعَدَم « العلم » ، ولما تفاهم الناس فيما بينهم ، لأن التفاهم ينتج عن الاعتقاد بقوانين إنسانية وطبيعية لها الشمول والاستقرار . لا إنسان بدون بيئات إنسانية ، ولا بيئة بدون أطر ثابتة يحصل داخلها التطور والرؤى عن إنسانية الإنسان وعن الحياة .

القوانين التى تهيمن على سير العالم قوانين موضوعية ، قابلة للإدراك ، غير مشخصة : فى الإسلام لا يوجد إله ماء ، أو إله شمس ، لكن ، إله واحد يسبغ الانسجام والتناسق على مجموع الكون .

* * *

بما أن هناك إمكانية توقع الظواهر الطبيعية ، كان الإنسان مطالباً بأن ينسجم معها وأن يتبنى العالم بتكيفه معه . وأيضاً ، بما أن أفعالنا ترمى لأن تصدر عن قواعد عقلية ودوافع قابلة للفهم ، يلزمنا أن نكون مسئولين عنها ، خصوصاً وأن الله جعل البشر خلفاء له فى الأرض ، تمييزاً لهم عن بقية الكائنات ، وحتى عن الملائكة الذين سجدوا لآدم بأمر من الله : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ » (النمل ٢٧ آية ٦٢) [١] . إنها سنة تجذرت فى الإنسانية منذ البداية إذ ما خلق الله أبا الآدميين إلا بعد أن قضى بتخليفه على الأرض ، وإلهامه منابع المعرفة ، وعلم آدم ماجهله الملائكة . فكأننا أمام رؤية كونية « بروميسية »[٢] « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة [. . .] وعلم آدم الأسماء

---

(١) انظر ، كذلك (فاطر ٣٥ آية ٣٩) : « هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض » .

(٢) نسبة إلى Prométhée ، إله النار الذى تعتبره الميثولوجيا الكلاسيكية المؤسس للحضارة الأولى الإنسانية . فبعد أن أبدع الإنسان من طين ، سرق النار من السماء ليجعله حياً . فغضب عليه جوبس (جوبيتر) رئيس الآلهة ، وعذبه شر عذاب .

كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم ! أنبئهم بأسمائهم » (البقرة ٢ الآيات من ٣٠ إلى ٣٣) .

هكذا امتزجت إنسانيتنا بنفحة إلهية ، إذ نفخ الله فيها من روحه ، ثم كرمها بالمعرفة ، وأسبغ عليها ثقته الكاملة فخلفها على الأراضين ، فالبشر خلفاء الله فى الأرض ، أى أنه تعالى قد نصبهم فيها مبدعين مسئولين[1] .

انتقاد هام آخر يمكن أن يوجه إلينا

إن الشخص برغم استقلاله الذاتى ، وبرغم فكر المبادرة ، والحرية ، والاستعداد الفطرى ، يبقى خاضعاً لتصرفات إلهية غامضة ومطلقة . ألا يجوز ، فى حق الله ، أن يطرح من جديد ، كما يشاء ، حرية الإنسان واستقلاله الذاتى واستعداداته ؟

إن هذا السؤال الهام يشبه الاعتراض السابق ، ولكن فى صيغة أخرى ومع إضافة عناصر جديدة .

لو حصل من الله مثل هذه التصرفات الاعتباطية ، لعارض الحكمة الإلهية التى تعكسها قوانين الطبيعة . فالله ، بمحض إرادته ، هو الذى قضى بأن تكون قوانين ، وقضى بأن يخضع لها سير الكون . « ولن تجد لسنة الله تبديلا » (الأحزاب ٣٣ آية ٦٢) .

يترك الله للكائن البشرى إمكانية اتباع استعداداته الطبيعية المحددة ، كما جبله عليها . فالقوانين التى تتحكم فى سير الكون « موضوعية » ، ومحسوسة ، وإن لم تكن شخصية . فليس فى الإسلام إله لكل ظاهرة من ظاهرات الطبيعة ، لكن هناك إله أوحد ينسق كل ما فى الكون ويدخل عليه انسجاماً تاماً . يلح توقع الظواهر الطبيعية ، على الكائن البشرى ، أن يتبنى العالم بالتكيف معه . وبما أن أفعالنا تعتمد

---

(١) لقد تعرض بعمق إلى تخليف الله للإنسان فى الأرض ، المفكر الإسلامى حسن صعب فى دراسته للإسلام والتيارات المعاصرة (دار العلم للملايين . بيروت) .

كذلك على قواعد عقلية وحواقع قابلة للفهم ، ترانا ملزمين بأن نتحمل مسؤوليتنا إزاءها .

لقد شاء الله أن يكون مدبراً ، وأنعم على الكائن البشرى بالعقل الذى هو إظهار للتدبير الإلهى وشهادة عليه (عن كونه تعالى هو المدبر الأعلى) . بحكم هاته الصفة ، يخلق الله النظام ، فى كل مكان ، بمعنى أنه يبدع الوحدة والانسجام مع التنوع اللانهائى .

* * *

قد يكون الانتقاد السابق جائزاً على مستوى انبثاقة الخلق البدئى ولما يتشخصن الكائن بعد : فلا موهبة ، ولا استعداد فطرى ، ولا حرية . وعلى العكس من ذلك ، بظهور الكائن البشرى ، يبتدئ تاريخ الوعى لأجل تشخصن الذات والأشياء ، قصد إدماجها داخل أفق شخصى . على هذا المستوى ، يقوم الله بدوره : إن أحسن هدية وهبها للإنسان هى العقل ، وجعله شاملاً بين جميع البشر . كثير من الفلاسفة المسلمين (الفارابى وابن سينا . . .) يؤكدون أن أول ما خلق الله هى العلة الأولى المطلقة : الفكر ، أو العقل .

يتكون الشخص بفضل الفكر وهو يصنع عالمه ، ويصنع العالم على مستواه بالإسهام فى الخلق الإلهى ، إذ يعمل على إكماله . فبفضل العقل ، يتعاون الإنسان مع الله ، ويصبح إنساناً آخر له كثافته الأنطولوجية مخلوق، إنه ، ولكنه يساهم فى كينونة العالم .

إننا فى عالم لم نخلقه ، ولكن كل شىء فى العالم يحتم علينا أن نبدعه فى حلة جديدة ؛ فنحن نلاحظ العالم ، ثم نغيره ، بل نلاحظه لنغيره . فكل نظرة نلقيها إلى العالم لهى بداية فعل جديد ، أو نسق تتولد فيه أفعال أخرى . إن العالم حدث ، والإنسان هو كذلك حدث ، وعن علاقة الحدث الثانى بالأول ، ينتج حدث ثالث يمنعنا من أن نبقى متفرجين ، إذ يحتم علينا أن نكون عاملين : نصنع ، ونصلح ، وننسق ، وننظم ما هو موجود لنجعل منه شيئاً كاملاً .

تلك هى المهمة المجيدة للإنسان ، أى « الأمانة » التى حمله الله إياها ، كما يقول القرآن : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ،

وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » (الأحزاب ٣٣ آية ٧٣) . أجل ، ألم يعلّم الله آدم ، أبا البشر « الأسماء كلها »[١] ، أى جميع أسرار الخلق التى كان الملائكة أنفسهم يجهلونها ؟ هذا ما تفهمه الشاعر ، محمد إقبال ، وعبر عنه فى حوار « بين الله والإنسان » :

الله

« أنا خلقت هذا الكون ، من طين وماء ،
فجعلت أنت فيه إيران ، وبلاد التتار ، وزنزبارا .
من الأرض خلقت الصلب ، فكان صافياً ،
فصنعت منه السيف ، والسهم ، والبندقية .
كذا الساطور ، صنعته لقطع ما فى المرج من أشجار عالية ،
وصنعت القفص لحبس الطيور الشادية » .

الإنسان

« أنت جعلت الليل ،
وأنا صنعت المصباح .
أنت خلقت الطين ،
وأنا صنعت الأقداح .
خلقت الصحارى ، والشعاب ، والجبال ،
وهيأت الحدائق ، وكسوت الأرض وروداً وأزهاراً .
أنا الذى استخرجت من الصلد زجاجاً ،
وهيأت لى من السم ترياقاً » .

* * *

الشخصانية الإسلامية لا تجعل من الشخص « موناده » روحية ، بالرغم من اعتباره معطى أولياً . إنه كائن كلى ، ومادة حية ، أى فكر ينفخ فى جسم ذى عقل . فإن يكن من فرق بين الروح والشخص ، فإنه بمثابة الجزء من الكل ،

(١) البقرة ٢ آية ٣١ .

أو المحتوى من المحتوَى. فالشخصانية الإسلامية ، وإن كانت مقتبسة من الدين . تمتنع عن الخضوع لأى اتجاه لاهوتى من شأنه أن يضع ، قبلياً ، أفضلية للروح على الجسد ، أو للجسد على الروح . فالعقيدة ، قبل كل شيء ، التزام . والالتزام المقصود هنا لا يتعلق بالطقس الروحى فحسب ، بل يتعلق ، أيضاً ، بالظروف المادية والموضوعية التى تعيش فيها الأمة ، والإنسانية بأجمعها . فبين الإنسان وباقى الكون تسود غائية تعمل لصالح الإنسان : فمن أجل الكائن البشرى ، خلق الله العوالم ، والأشياء ، والكائنات .

• • •

هل هذا الاتجاه مثالى أم مادى ؟

إننا أمام شيء آخر يأخذ من المادية والمثالية ، على السواء، فهو تركيب يتكامل فيه الاتجاهان . لولا هذا التركيب لكان الإسلام روحانية تسبح فى الفضاء، دون جذور فى العالم .

• • •

الفصل الثانى

وضع المرأة

صعوبة أخرى ، أو الصعوبة الرئيسية ، هى التى يثيرها وضع المرأة فى الإسلام . لقد تقدم أن قلنا إن المرأة مساوية للرجل . بيد أن الأحوال الشرعية الخاصة بها تؤدى بكثير من الباحثين إلى الاعتقاد أن ليس هناك تعادل ، مطلقاً ، معتمدين على ما يأتى :

(ا) بينما يبدو تعدد الزوجات مباحاً ، فإن تعدد الأزواج ، بالنسبة للمرأة ، على أى شكل ومهما كانت الظروف ، ليعتبر فحشاً وإجراماً يستوجبان أشد العقاب ، فى الدنيا والآخرة .

(ب) يسمح للمؤمن أن يتزوج بـ « كتابية » (دون إرغامها على أن تسلم) فى حين أنه لا يجوز للمرأة أن تتزوج بغير المسلم .

(حـ) ينفرد الزوج وحده بحق الطلاق .

(د) ويضاف ، إلى هذه القائمة ، أن النصيب الذى ترثه المرأة يقل دائماً عن نصيب الرجل : « يوصيكم الله فى أولادكم : للذكر مثل حظ الأنثيين » (النساء ٤ آية ١١ و ١٧٦) .

(هـ) ليس لشهادة المرأة نفس القيمة الشرعية التى لشهادة الرجل ، أمام المحاكم .

إذا كان هذا هو الوضع ، أيمكننا أن نتكلم عن « شخصانية إسلامية » ؟ نعم ، بكل تأكيد ، يكفى الرجوع إلى القرآن والسنة .

ا ــ تعدد الزوجات

يحض القرآن ، حضًا شديداً ، على الزواج الأحدى . ولنقتنع بذلك ، سنتأمل السورة المدنية . النساء ٤ الآية ٣ و ٤ ، والآيات من ١٢٧ إلى ١٣٠ . وقبل ذلك فلنبد ملاحظات أولية .

* * *

لم يكن تعدد الزوجات قط لا واجباً ولا مستحبًا . بل ، على العكس ، للزوجة الحق بأن تضيف ، إلى عقد الزواج ، شروطاً تلزم الزوج باحترام الزواج الأحدى ، فلا يضارها ، وأن يؤدى لها تعويضات فى حالة الطلاق .

وللزوجة أيضاً أن تطالب القاضى بفسخ الزواج كلما وُجدت أسباب مقبولة . مثلاً أن يعاملها الزوج بقسوة ، أو أن تتعرض لسب لاذع ، أو لخطر فى معاشرته ؛ وكأن يكون عاجزاً جنسيًا ، أو أحمق ، أو مصاباً بمرض معد .

وأخيراً ، بإمكان الزوجة أن تطالب فسخ عقد الزواج إذا رفض الزوج أن يقاسمها فراشه عن إرادة ، أو أن يجعلها تعانى من تعسفاته الشبقية ، أو أن يرفض دفع المؤونة بما يلائم كرامتها .

لنتأمل الآن السورة(٤) : « سورة النساء » . نجد فيها آيات كثيرة ، بعضها يتصل بتعدد الزوجات ، والبعض الآخر يتحدث عن الزواج بكيفية عامة . وافتتاح السورة :

« يا أيها الناس ! اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً » .

فهناك ، إذن ، بين الجنسين ، فى أصل التكوين ، تساو مطلق ، تام ، يرتكز على روابط « المودة والرحمة » ، كما تؤكده آية أخرى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الروم ٣٠ آية ٢١) .

بعد التمهيد ، تحدد « سورة النساء » العلاقات الزوجية : فى إمكان الزوج أن

يتخذ أكثر من زوجة ، على شرط أن يعدل تجاه جميع أزواجه : « فإن خفتم ألا تعدلوا ، فواحدة [. . .] ، ذلك أدنى ألا تعولوا » (آية ٣) .

وتشتمل « سورة النساء » على تعاليم أخرى تتعلق بالزواج وتعدد الزوجات : (الآيات من ١٢٦ إلى ١٣٠) « ويستفتونك فى النساء . قل : الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط . وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما »[1] .

كثيراً ما يتحدث القرآن عن الزواج بيتامى النساء لأنهن ، إن لم يحمهن الشرع ، تعرضن لبعض الأوصياء الذين يتزوجونهن طمعاً فى ثروتهن . فالإسلام يرمى ، بصفة عامة ، إلى حماية المرأة ضد كل محاولة تعسف أو ظلم من جانب الزوج .

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً . والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا ، فإن الله كان بما تعلمون خبيراً » (النساء ٤ آية ١٢٨) . إن التقوى ، إذن ، تتمثل فى الإذعان للأوامر الإلهية ، ولا يخفى على الله شىء من نياتنا أو أفعالنا . فالفضيلة الأساسية هى العدالة ، خصوصاً إزاء الزوجة :

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ! فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا ، فإن الله كان غفوراً رحيما . وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته ، وكان الله واسعاً حكيما » (النساء ٤ الآية ١٢٩ و ١٣٠)

* * *

من هذه الآيات يتضح موقف الإسلام إزاء تعدد الزوجات : فهو إذ يدخله من النافذة الضيقة ، يخرجه من الباب الواسع ، إن صح هذا التعبير . فالإسلام يصل بنا إلى تحريم ضمنى لتعدد الزوجات لكثرة ما وضع له من قيود ، كالمطالبة بالإنصاف ، والنزاهة بين جميع الزوجات ، وهذا من قبيل المستحيل : « ولن

---

(١) يجب أن تؤخذ كلمة « يتيم » ، التى وردت مرتين بهذه الآية ، فى معناها الواسع : إنها تدل على كل شخص ضعيف لا حماية له ، كاليتامى (فى المعنى الدقيق للكلمة) والمستضعفين ، عاطفياً أو مادياً ، أى الذين يمكن أن يستغلوا ، وكذلك الأقليات يجب أن تحمى كى لا تصاب بإهانة .

تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ، ولو حرصتم » . (النساء ٤ آية ١٢٩) .

فعلى الذى يرجو رضاء الله ويخاف الوقوع فى الظلم أن يختار الزواج الأحدى: « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .(الذاريات ٥٠ آية ٣٧) . لذا توصل الكثير من المعتزلة إلى أن كل المحاولات لتحقيق العدل محكوم عليها بالإخفاق . فارتأوا القول بتحريم التعدد . احتراماً لأمر الله. ثم إن المستقرئ لتفسير « المنار » ليجد أن الأستاذ الإمام لم يكن بعيداً عن هذا الاتجاه . فهل من المتيسر لرجل (إلا أن يعزز بنور النبوة) أن يعدد الزوجات ويكون، فى نفس الوقت ، كريماً مع أهله ، تماشيا مع الحديث« ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » ؟[1] فإكرام الأهل لا يكتمل دون خلق سوى . و « العدل » منطلق كل الأخلاق، وإن« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً . وخياركم خياركم لنسائهم »[2] .

قد اشترط فى إباحة تعدد الزوجات « ما يصعب تحققه،فكأنه نهى عن كثرة الزوجات.وتقدم أنه يحرم على من خاف عدم العدل أن يتزوج أكثر من واحدة»[3]

* * *

فلنأخذ النصوص المتعلقة بتعدد الزوجات ، دون تأويل ،وكما يفهمها المقلدون الحرفيون . فحتى فى هذه الحالة ، نجد أن الإسلام لم يكن « رجعيـاً » فى مواقفه من المرأة . لقد خطى بتحرير المرأة خطوات ثورية إلى الأمام.

من ذلك أنه حصر الحد الأعلى لعدد الزوجات فى أربع ،وقد كانت العادة من قبل لا تعترف بحد ، خصوصاً لدى البدو ، حيث لا قيود على الرجل .فى هذا الميدان . ونحن على علم من أن البدو قوم لم يكونوا يعرفون كيف يلجمون جموحهم.

وحرم الإسلام زواج الرهط (polyendrie) : تعدد الرجال بالنسبة للمرأة الواحدة.

كما قضى على زواج البدل (كان الرجال يتبادلون نساءهم،وطبعاً النساء يتبادلن رجالهن) .

وحرم زواج الاستبضاع (إلزام الرجل زوجته أن تطأ فراش فارس مرموق ؛

---

(١) الترمذى .

(٢) الترمذى .

(٣) تفسير المنار ، ج ٤ ، ص ٣٥٠ ، ط ٤ .

أو نبيل عزيز اشتهر بشيم البدو المفضلة، وذلك رغبة فى استنجاب ولد يرث تلك الخصال) .

ونضيف ، فى ميدان تحرير المرأة ، محاربة الإسلام لأعراف أخرى تعادى الكرامة الإنسانية ، مثل الإعضال (أى مهاجرة الرجل لزوجته ، لا يضاجعها ليرغمها على أن تتنازل له عن حقها فى المهر) .

وأخيراً ، بفضل الإسلام ، لم يعد الرجل يرث ، من جملة ما يرثه عن أخيه أو أبيه ، المرأة ، فيتزوجها دون صداق ، أو يتركها تتزوج غيره ويأخذ هو صداقها .

ب — المساواة بين الرجل والمرأة

تحتفظ المرأة باسمها (الاسم العلم) لأنه صميمى فى « أناها » ، فلا تتنازل عنه لتحمل اسم زوجها . إن الزواج لا يضعف من شخصية المرأة، فهى ليست « مدام فلان . .م. واء ولادتها كذا . . . » ، بل إنها ، وستبقى ، كل حياتها، تحمل الاسم الذى حملته منذ الولادة . نعم، لكل امرأة الحرية لتعطى لنفسها أى اسم شاءت ، لكن ليس هناك فى الإسلام قانون يفرض عليها أن تنسلخ عن شخصيتها لفائدة اسم الزوج .

ويحتوى القانون الشخصى للمرأة على كثير من الحقوق ، مثل الحق فى الزواج ، والحق فى تكوين أسرة ، والحق فى الإرث وفى الملكية الشخصية ويبقى الإرث والمكتسبات ممتلكات خاصة بها ، بكيفية مطلقة ، يحميها الدين ضد كل تدخل خارجى ، ولو كان تدخل الزوج نفسه .

لكن ، بالرغم عن ذلك ، يلاحظ أن حظ المرأة فى الميراث نصف حظ أخيها . ألا يعد هذا خللاً فى مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ؟

يتضح الجواب على هذا الاعتراض إن اعتبرنا أن الرجل هو الذى يؤدى المهر ، عند الزواج ، وأن المهر يصبح ملكاً شخصياً للزوجة ، بينما الزوج يتحمل وحده كل نفقات الأسرة ، وأنّ تحمل هذه التكاليف يمكن عدّهُ تعويضاً فيه نوع من العدل والمساواة[1] . فنظراً لما للمرأة من حقوق ، ومن حرية التصرف فى ممتلكاتها ، يلزمها أن تتحمل المسئوليات المنوطة بذلك ، لتقوم بدور داخل الأسرة وداخل الأمة . فالواقعية الواعية « لأناها » وكثافته المجتمعية يرتكزان على مجموع الحقوق : إن المرأة شخص .

* * *

(١) انظر : محمد رشيد رضا ، نداء إلى الجنس اللطيف ، ص ١٠ ، وسعيد الأفغانى ، الإسلام والمرأة، دمشق (ط ٢ ، ١٩٦٤) ، ومحمد المهدى الحجوى ، المرأة بين الشرع والقانون ، (الكتاب مرفوق بدراسة بالفرنسية) كذلك عن المرأة فى الفقه الاسلامى ، دار الكتاب ، ١٩٦٧ الدار البيضاء .

بالإضافة إلى تحرير المرأة من نير القبيلة ، ومن العادات التابووية (tabou) ، ومن أعراف العصر الجاهلى [١] ، فقد أعطى الإسلام للزوجة حريات أساسية ، وخصها بإطار قانونى يمكنها من الحصول على حريات أخرى (الحقوق المدنية ، والحق فى العمل . . .) . فبإمكان المرأة ، داخل هذا الإطار ، أن تكافح لتساير ركب تطور الإنسانية . يقرن القرآن ، دائماً ، المرأة بالرجل ، فى كل الحالات ، فلم تعد شيئاً من أشياء الرجل ، بل قرينته وكفء له . ويجب أن تتحقق هذه المساواة ، فى جو مفعم بحب خالص ، وتتبلور قداسة هذا الحب فى أحاديث يمكننا اعتبارها إثارة ، وإلهاماً شعرياً ، وتكريماً رائعاً لـ « المودة والرحمة » بين الزوجين [٢] :

« ما من رجل أخذ بيد امرأته يراودها إلا كتب الله تعالى له حسنة . فإن عانقها فعشر حسنات . فإن أتاها كان خيراً من الدنيا وما فيها . . » [٣].

« خيار الرجال من أمتى خيارهم لنسائهم . وخير النساء من أمتى خيرهن لأزواجهن ، يرفع لكل امرأة منهن كل يوم وليلة أجر ألف شهيد قتلوا فى سبيل الله صابرين محتسبين . . . » [٤].

« . . . ما من امرأة حملت من زوجها حين تحمل إلا كان لها من الأجر مثل القائم ليله ، والصائم نهاره ، والغازى فى سبيل الله تعالى . وما من امرأة يأتيها طلق إلا كان لها بكل طلقة ، عتق نسمة ، وبكل رضعة عتق رقبة . فإذا فطمت ولدها ، ناداها مناد من السماء : أيتها المرأة ! قد كفيت العمل فيما مضى ، فاستأنفى العمل فيما بقى . . . » [٥] .

* * *

(١) مثل : وأد البنات ، انظر القرآن : (التكوير ٨١ آية ٨ و ٩) . « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » ، وكازدراء الأنثى وتفضيل الذكر : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به : أيمسكه على هون ؟ أم يدسه فى التراب ؟ » (النحل ١٦ آية ٥٨ و ٥٩) .

(٢) (الروم ٣٠ آية ٢١) .

(٣) عبد القادر الجيلانى ، الغنية ، ج ١ ، ص ٤٤ ، ط ٣ ، القاهرة .

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٤٤ .

بلغت المرأة بفضل الإسلام ، درجة عليا من التطور . ولئن كانت مجرد درجة ؛ فإنها درجة حاسمة . لقد حلت الفردية الدينية — والشخصية الشرعية محل الاندماجية القبلية ، فانفصل الفرد عن روح القطيع الجماعى ، وأضحى ذاتاً وموضوعاً ، فى اعتبار الفقه ، إذ يتوجه الدين إلى كل فرد من أفراد الأمة ، ويهتم القرآن والسنة والفقه بالمرأة نفس الاهتمام بالرجل . إنها روح ديموقراطية جديدة .

تتوجه المرأة إلى الله بنفس الشعائر التى يتعبد بها الرجل : « وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان . فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (البقرة ٢ آية ١٨٦) . فالله ، طبقاً لهذه الآية ، قريب من عباده (وعباد ، على إطلاق الشمول : الذكور والإناث على السواء) .

ح – ثورة من الجذور

لكى لا نخرج عن الميدان الذى التزمناه ، نكتفى بهذه النظرة العامة على المشاكل التى تثيرها وضعية المرأة ، والتى يمكن أن توجه ضد الشخصانية الإسلامية . ولكنها ، فى الواقع ، ترجع جميعها إلى الأحوال القانونية للمرأة ، لا إلى وضعها ومصيرها كشخص .

المرأة مساوية ، كامل المساواة ، للرجل . فالشهادة التى تعد الركن الأول للإسلام واحدة ومشتركة بينهما . وتلك هى الحال أيضاً ، بالنسبة للأركان الأربعة الأخرى للدين .

نعم ، هناك بين الرجل والمرأة بعض الاختلافات ، إلا أنها لا تتصل ، مطلقاً ، بالجانب الأنطولوجى ، بل تنحصر فى الجانب القانونى الفقهى فقط : « يا أيها الناس ! اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء» (النساء ٤ آية ١) .

فالمرأة تقرن بالرجل ، كلما خاطب الله الناس . وهذا مثال ، من بين عشرات أخرى :

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما » . (الأحزاب ٣٣ آية ٣٥) .

والسنة ، كذلك ، تضم كثيراً من أمارات العناية بالمرأة ، نذكر منها خطبة الوداع حيث نجد عدة مقاطع هامة تتصل بموضوعنا :

« أما بعد ، أيها الناس ! فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حق . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه[1] ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة[2] .

---

(١) يدل الفراش ، كذلك ، على الشرف والشهرة . يعضد هذا ، الحديث الذى يطلب فيه من المؤمن أن لا يقف مواقف الشبهات .

(٢) الفاحشة هى الكلمة الخاصة بالفقه . فاستعمالها هنا يعضد مفهوم كلمة « فراش » فى التعليق السابق .

فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً ! فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله [. . .] اتقوا الله فى النساء ، وعاملوهن بالمعروف [. . .] . »

« أيها الناس ! اسمعوا قولى واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم »[1] .

كذا تُعلى « خطبة الوداع » من شأن المرأة ، بيد أن الرجال ، ويا للأسف ! كثيراً ما كانوا ، فى معاملتهم معها، أنانيين يستأثرون بالامتيازات . حقاً ، يلاحظ أن ذاك التعسف ظاهرة عرفتها الإنسانية على ممر تاريخها واختلاف أديانها ؛ فليست من خاصيات العالم الإسلامى . فبما أن كل الفقهاء ، إلا من ندر ، هم من الرجال ، فقد أولوا معطيات المشاكل من منظار الرجل أكثر من اللازم .

* * *

برغم ذلك ، إن وضع المسلمة وضع تحررى ممتاز ، إذا قورن بما كانت عليه المرأة العربية فى الجاهلية ، أو المرأة عند الشعوب القديمة « العريقة فى المدنية » .

كانت المرأة فى (أثينا) لاتعتبر إلا بضاعة من البضائع تستعمل فى المقايضات المختلفة . وكان للرومانى الحق فى أن يقتل زوجته ، وعبيده ، وإماءه . وسمح القانون بتعدد الزوجات ، مع إسناد سلطة تسيير القطيع النسوى إلى الزوجة الأولى . ونجد فى تاريخ الفرس نظاماً شبيهاً جداً بنظام الرومانيين . فإذا رغب الفارسى فى نكاح أمه ، أو أخته ، أو عمته ، أو خالته ، لم يكن يجد أية معارضة من القانون أو من أى أحد . وقد ساد الاعتقاد بأن الدم نجاسة ، فكانت المرأة ، كلما حاضت ، تضطر إلى الانعزال كى لا يقترب منها أحد ، لأنها دنس يحرم عليها مس أى كائن ممن يحيط بها .

* * *

---

(١) عن سيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص ١٠٢٣ تحقيق محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٣ .

نواجه الآن مشكلا آخر

بما أن المرأة مساوية للرجل ، من الجانب الأنطولوجي ، أيمكنها أن تكون نبية ؟

إنها مشكلة قد وُضعت ، أكثر من مرة فيما مضى ، فأكد كثير من علماء الإسلام المرموقين أنه قدأوحى إلى نساء . ولم لايجوز ذلك؟ فبعضهن لم يكن ملهمات فحسب ، إذ هذا شيء طبيعي ، ولكنهن ارتفعن إلى درجة عليا من النبوة . وتدعيماً لهاته القولة ، نورد أسماء ممن أوحى إليهن ، مثل (أم إسحاق ، وأم موسى ، ومريم أم عيسى[١]) .

فليس من تبرير يجعل النبوة امتيازاً خاصاً بالرجال . أليست النساء ، عند الله ، شقيقات للرجال ؟ فلن تكون أبداً قابلية الاكتمال خاصة بالرجال ؛ إن للمرأة ، مثل ما للرجل ، من الإمكانيات فى العمل على التجاوز الذاتى[٢] .

* * *

قضية مساواة المرأة بالرجل نقطة ارتكاز فى كل اتجاه شخصانى ، لذا نرانا ملزمين بأن نتفحصها من جوانب مختلفة .

تتساوى المرأة مع الرجل ، كامل التساوى ، من حيث التركيب البيولوجى ، كما وضحناه سابقاً[٣] . ونضيف ، إلى ذلك ، آية قرآنية نظمها ببنة لاتبقى مجالاً للريب :

« والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجاً » (فاطر ٣٥ آية ١١) . كذلك التساوى من حيث التكوين السيكولوجى :

« ومن آياته أن خلق لكم ، من أنفسكم ، أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة» . (الروم ٣٠ آية ٢١) . فالخلق قد حصل ، من نفس واحدة ، ليتكامل الزوجان ، فبنى الله علاقاتهما على الحب ، أى على « المودة والرحمة » ، وهى أمتن وأعمق عروة بين شخصين .

---

(١) ابن حزم ، الفصال ، ج ٥ ، ص ١٧ .

(٢) إمكانية نبوة المرأة مثال يظهر إلى أى حد يعتبر من الإجحاف أن نسم الأسرة الإسلامية بأنها أبيسية ؛ توجد ، إلى يومنا هذا ، مجتمعات إسلامية قريبة من المجتمعات الأمومية (نذكر منها الطوارق فى الجنوب الجزائرى) .

(٣) انظر : القسم الأول ، الفصلين ١ و ٢ .

وتتميماً لهذه المعانى ، نأتى بالآية الأولى من سورة النساء ٤ :

« يا أيها الناس ! اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » .

يطلق « زوج » على الذكر والأنثى (الرجل والمرأة) ، كما تنص عليه الآية ، فى خطاب موجه لآدم : «وقلنا : يا آدم ! اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا ! » (البقرة ٢ آية ٣٥) .

وتتساوى النساء ، فى الأحكام ، مع الرجال من الجانب الدينى . فهن ، كما كانت تقول عائشة زوج النبى : « شقائق الرجال » . فالمرأة والرجل متماثلان فى الحقوق ، متماثلان فى الواجبات .

د — الرجال قوامون على النساء

لا مناص لنا ، ونحن نقر بالنظرة الأصلية الأصيلة فى الإسلام ، من أن نلاحظ ، ويا للأسف ، أن كثيراً من المسلمين كانوا ، فى أغلبية الأزمنة ، يعملون على الحيلولة دون التساوى بينهم وبين المسلمات . فحتى فى الاتجاه السلفى المعاصر (جماعة المنار) ، نجد مسحة محافظة تعطى أحكاماً عامة اعتباطية بغية « الدفاع عن الإسلام » ، أكثر مما ترمى إلى دراسة أحواله بتدقيق مجتمعى وتاريخى للواقع المعاش . إن التزام الأستاذ الإمام محمد عبده كان مناداة بإصلاح أخلاقى لا بإصلاح مذهبى ، حقاً ، إن الحركة السلفية التى تزعمها جماعة المنار نيرة و « تقدمية » فى دفاعها عن المرأة ، لذا قد يستغرب من كون محمد عبده ، بعد أن قرر مبدأ تساوى المرأة بالرجل ، يتراجع ليؤكد أن الأسرة والمجتمع فى حاجة إلى رئاسة ، وأن الرجل هو الأحق بها : « لأن الرجل أعلم بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله »(١) .

ربما قيل عن هذه الأحكام إنها غير مدعمة ، لا منطقياً ولا اجتماعياً ولا بيولوجياً : فالرجل ليس (بكيفية مطلقة) « أعلم » من المرأة ، والتاريخ على ذلك شهيد ، وليس الرجل (دائماً) أقوى من المرأة ، ولا أغنى . ولنقتنع بذلك ، ما علينا إلا أن ننظر حولنا ! . .

فخديجة كانت أثرى (مادياً) من زوجها محمد ! والنبى الرسول نفسه يصرح بأن « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » (البخارى ومسلم) . والقوة : هى أيضاً ، ليست ميزة كافية للرئاسة والأفضلية ، فبسالة الجنود فى الحرب ليست بالحجة الكافية على التفوق الفكرى والأخلاقى ، أو على الدهاء فى التدبير المنزلى والسياسة العامة . وهذا واضح بين فى الحديث النبوى : « رجعنا من الجهاد الأصغر ، إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس »(٢) . فأمهات المؤمنين ،

---

(١) تفسير المنار ، ج ٢ (ط ٣) ص ٣٨٠ ، دار المنار ، القاهرة ، ١٣٦٧ .

(٢) وفى حديث آخر : « الجهاد أربع : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصدق فى مواطن الصبر وشنآن الفاسق » ، ابن نعيم ، الحلية ، انظر : السيوطى ، الجامع الصغير ، ج ١ ص ١٤٦ ، ط عبد الحميد حنفى .

بشهادة ما ورد فى « السيرة » ، كن أقدر من كثير من الرجال ، على « الجهاد الأكبر » ؛ « يا نساء النبي ! لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » (الأحزاب ٣٣ آية ٣٢) .

فأمهات المؤمنين مفضلات إن اتقين . وفعلاً ، قد امتزن بالتقوى ، فكن خيراً من كثير من المؤمنين الصادقين ، وبالأحرى من مطلق الرجال !

إن مادفع (المناربين) إلى أن يعطوا للرجل حق الرئاسة (أى الإقرار بعدم المساواة ، من بعض الوجوه) هو ، على ما يظهر ، حرصهم على تأويل الآية ٣٤ (من سورة النساء ٤) ، فجاء تأويلاً متأثراً بالنظام الأبيسى[١] ، وإن لم يقصدوا ذلك . نعم ، الآية تؤكد أن « الرجال قوّامون على النساء » ، لكن ، ما معنى « قوّامون » ؟

* * *

إن الجذر : ق . و . م . (— قام ، قياماً ، فهو قائم) الذى اشتق منه لفظ « قوّامون » يدل على العناية والاعتناء والحماية ، و « القيام » بشئون الغير ، كما قاله كثير من اللغويين . فـ : « قيام للشيء هو المراعاة للشيء والحفظ له [. . .] . ومن القيام الذى هو بالاختيار ، قوله تعالى : (الرجال قوّامون على النساء) وقوله : (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما) . والقيام فى الآيتين جمع قائم »[٢] . فالرجال « قوّامون على النساء » ، أى يتكفلون بمصالحهم المادية ، ما دامت النفقة فرضاً على الرجل. نقرأ فى معجم مقاييس اللغة : « قام قياماً ، إذا انتصب ، ويكون قام بمعنى العزيمة ، كما يقال : قام بهذا الأمر ، إذا اعتنقه »[٣] . تستعمل الديبلوماسية المعاصرة تعابير ، منها : « قائم بأعمال » ، وتعنى موظفاً ليست له أية سلطة مطلقة ، وإنما هو فى « خدمة » السفارة . ومن هذا الباب : قومت الشيء ، تقويماً ، وأصله « أنك تقيم هذا مكان ذاك . [. . .] . وهذا قوام الدين والحق ، أى به يقوم » .[٤] فعندما « ينتصب » الرجل خادماً لأهله ، يكون للبيت « القوّام » ، لا « الرئاسة » ، لأنه إذا جعل القوّام فى القمة لا فى القاعدة تصدع الكيان .

* * *

---

(١) انظر الأبيسية فى م . ف . (le patriarcat) .
(٢) الراغب الأصفهانى ، المفردات فى غريب القرآن ، ص ٤١٦ ، القاهرة ، ١٩٦١ .
(٣) أحمد بن فارس ، ج ٥ ، ص ٤٣ .
(٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

لقد انزلق المفسرون من المعنى السابق إلى ما يصدر عنه من انحرافات ، فى وسط غير سوى مجتمعياً وسياسياً . حقاً ، قد أصبح الرجال ، كما يصرح المناريون ، « أعلم » و « أقدر » و « أغنى » من النساء ، عندما سيطروا ، بأنانية ، على زمام السياسة والاقتصاد . فتفوق الرجال مغتصب ، وليس أصيلاً فى الطبيعة البشرية ، كما تبينه السيكولوجيا الحديثة . إنه تفوق كسبى ، فى مجتمع سادته الأبيسية المطلقة ، إلى حد أن النساء صرن كما يصفهن المناريون أنفسهم : « كالأتن الحاملة ، والبقر العاملة [. . .] فسق الرجال عن أمر ربهم [فى العالم الإسلامى] فوضعوا النساء فى هذا الموضع بحكم قوتهم ، فصغرت نفوسهن ، وهزلت آدابهن ، وضعفت ديانتهن ، ونحفت إنسانيتهن ، وصرن كالدواجن فى البيوت [. . .] فساءت تربية البنين والبنات ، وسرى الفساد الاجتماعى من الأفراد إلى الجماعات [. . .] لبث المسلمون على هذا الجهل الفاضح أحقاباً ، حتى قام فيهم اليوم من يعيرهم باحتقار النساء واستعبادهن ، ويطالبونهم بتحريرهن ومشاركتهن فى العلم والأدب وشئون الحياة . . . » (١) .

نعتقد أن الوضع سيبقى على هذا الشكل إذا لم تتحرر المرأة عملياً ، تباعاً لهدى الإسلام وما جاء به من الإصلاح ، نعنى إذا بقيت للرجل وحده اليد العليا فى لاقتصاد والسياسة ، أى السلطة المطلقة فى الأسرة والمجتمع ، وله وحده .

• • •

لقد حرر الإسلام المرأة من الوأد : « من كانت له أنثى فلم يئدها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله تعالى الجنة »(٢) . وحرم الإسلام السبى ، والطيرة ،

(١) تفسير المنار ، ج ٣ ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٦٠ . هاته التصريحات التى تمضى على واقعنا المتخلف عن مبادئ الإسلام الحق ، وعن تقدم الحضارة المعاصرة ، مظهر من تقدمية محمد عبده ، وليست آراء مجموع المناريين . فالسيد محمد رشيد رضا يقف من قضية المرأة دون موقف أستاذه بكثير ، فنجده يبرر تعدد الزوجات ويؤيده ، كما يدافع عن « مزايا الحجاب » (انظر كتابه : نداء إلى الجنس اللطيف) ، انظر كذلك : المنجى الشملى : « قضية المرأة فى تفسير المنار » فى حولية الجامعة التونسية ، العدد ٣ سنة ١٩٦٦ ، ص ٥ إلى ٢٧) .

(٢) حديث نبوى نقله عن (تيسير الوصول) الأستاذ سعيد الأفغانى فى كتابه الإسلام والمرأة ط ٢ ، ص ٥٩ ، دمشق ، ١٩٦٤ .

إذ كان عرب الجاهلية يقولون : « الطيرة فى ثلاث : فى المرأة ، والدابة ، والدار » . فالإسلام ، بمواقفه تلك ، أعاد للمرأة كرامتها الإنسانية ، إذ سوى بينها وبين الرجل فى حد القذف ، وهو تساو فى العرض ، كما أقر الحكم بالقتل على قاتلها ، لأن دمها مساو لدم الرجل[١] .

ومنح الإسلام المرأة حقوقاً كثيرة ، على رأسها ، حق الحكم ، وحق الفتوى ، اعترافاً بأنها لا تقل عقلاً ودراية من الرجال[٢] . وتردد عثمان بن عفان ، فى أيام خلافته ، على بيوت أمهات المؤمنين مستشيراً فى شئون الدولة . فلقد نصحته مرة أم سلمة ، نصيحة فيها من النقد السياسى بقدر ما فيها من الوعظ ، فرد عليها الخليفة معترفاً مقدراً شاكراً : « أما بعد ، فقد قلت فوعيت ، ووصيت فاستوصيت ، ولى عليك حق النصيحة . . . »[٣] فبينما كانت المرأة فى الجاهلية تورث وتباع ، أصبحت المسلمة ترث وتتمتع بحق الملكية الشخصية والتصرف التام فيها وتستشار فى تسيير أمور الدولة .

* * *

تلك هى المرحلة الأولى فى تحرير المرأة . وإن لم تكن المرحلة الحاسمة والأخيرة .

فلو أن الإسلام أتى فى بيئة تسودها الأموسية[٤] لقفز قفزة أبعد فى تحرير وأنسنة المرأة ، ولانغمر فى الدفاع على الرجل ، لأن الرجل فى النظام الأموسى ، يكون لا حول له ولا قوة . إن الأخلاقية الإسلامية تجعل دين القرآن يقف دائماً إلى جانب المقهورين على أمرهم ، إلى أن يتغلبوا على الضعف والهوان . فالإسلام ، إذا هو لم يتخذ هذا الموقف ، لن ينسجم مع واقعيته التى تجعل منه « ديناً صالحاً لكل بيئة[٤] ولكل زمان » . كما يعتقده مجموع المسلمين .

---

(١) بينما كان الرومان وغيرهم من الدول المتحضرة يبيحون للرجل قتل أزواجه .

(٢) انظر مثلا ابن الجوزى ، سيرة عمر بن الخطاب حيث يروى مناقشة تشريعية بين امرأة وابن الخطاب اضطر الخليفة فى آخرها إلى أن يعترف بخطئه ، فتراجع فى حكمه مصرحاً : « امرأة أصابت ، ورجل أخطأ [. . .] كل الناس أفقه من عمر ! » .

(٣) أمالى الزجاجى ، ص ١٢٥ ، ١٩٣٥ .

(٤) انظر : م . ف . matriarcat

النظام الأموسى نظام تسود فيه المرأة ، وتخضع الرجل إلى سلطانها ، لأن نفقة الأسرة والتسيير العام فى البيئة تحت مسئوليتها[١] . أما فى المرحلة الحالية من المدنية، وقد أصبح واقع كل البيئات يرمى إلى المساواة الاقتصادية والسياسية بين الرجل والمرأة، فالقضية توضع بشكل آخر :

لقد حققت الإنسانية ، أو أنها فى طور التحقيق ، ما يرمى إليه الإسلام من اكتمال فى المساواة . تشتغل امرأة اليوم ، وتنتج ، مثل الرجل ، وتنفق على المنزل والأسرة ، بما فيها الزوج والأبناء ، وتشارك المرأة أيضاً فى كل الفعاليات المجتمعية ، ومن ضمنها الأعمال السياسية .

• • •

نحن هنا لا نعطى أى حكم قيمة على هذه الأوضاع ، وإنما نكتفى بوصف ما هو كائن ملحوظ . لقد تحررت المرأة ، عملياً ، فلن يجوز ، دون تناقض مرير ، أن تبقى قوانين الحالة المدنية الخاصة بها ، دون مستوى الواقع . فمن المستغرب أن نحتج ، فى عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) بما جاء فى تفسير المنار ، من أن المرأة : « تنازلت ، باختيارها عن المساواة التامة ، وسمحت بأن يكون للرجل عليها درجة واحدة ، وهى درجة القيامة ، ورضيت بعرض مالى عنها »[٢] . إن امرأة اليوم ترفض « التنازل » ، فما الحل ؟

إذا أجزنا رئاسة الرجل ، كما يطالب بها المناريون ، انتقلوا بنا إلى الاستنتاج الآتى : « فإن نشزت (المرأة) عن طاعته (أى طاعة زوجها) كان له تأديبها بالوعظ ، والهجر ، والضرب غير المبرح ، إن تعين تأديبها . يجوز ذلك لرئيس البيت [. . .] كما يجوز مثله لقائد الجيش ولرئيس الأمة »[٣] . فطبقاً لأى حجة ، منطقية أو بيولوجية ، تعد المرأة جندياً والرجل قائداً للجيش ؟

ومن جهة أخرى ، بمستطاع المرأة أن تعكس معطيات الوضع فتتساءل : ما هى التدابير التى يجب اتخاذها فى حق الرجل الناشز ؟

لقد ضرب بعض الصحابة نساءهم ، فما كان من النبى إلا أن ينهى عن الضرب

---

(١) كانت المرأة فى (إسبارطة) تتمتع بحق تعدد الأزواج .
(٢) تفسير المنار ، ج ٥ ، ط ٣ ، ص ٦٧ – ٦٨ .
(٣) نفس المصدر ، نفس ص .

ويدين من يرتكب ذلك السلوك : « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم »[١] فاحتجاج كهذا ليس عجباً من نبي يصرح : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »[٢] . وينصح ، بإلحاح ، في خطبة الوداع الشهيرة : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً ! »[٣] .

إن الرئاسة تستلزم الطاعة ، والإسلام يصرح بأن « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ». فهل من ضمان على أن الرجل لا يستعمل « رئاسته » إلا في الطريق السوي ؟ فالقرآن يحض على أن لا تعصى المرأة النبي ، لأن النبي رسول معصوم، فلا يطالبها إلا بالمعروف : « يا أيها النبيّ! إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله » (الممتحنة ٦٠ آية ١٢) .

فالآية لا تشترط ، في معاهدة المؤمنات للرسول ، بأن يعترفن برئاسة الزوج ضمن مقايضة يتنازلن بمقتضاها عن « المساواة التامة [. . .] ، ويرضين بعوض مالي عنها » ، كما جاء في تفسير المنار[٤] . القرآن لا يطالبهن إلا بعدم الكذب ، ونبذ الشرك ، كما يطالبهن بالاستقامة .

فخصوم الإسلام يفترون عليه عندما يتهمونه بأنه لم يحفل بالنساء، وأنه يعدهن (في نظرهم) مجرد « أشياء » لمتعة الرجل .

إن الآية المتقدمة تنوه بهن وتدخلهن في حوار مباشر مع النبي الرسول ، ويدور الحوار حول أمر ذي شأن خطير : الإيمان ، وأخلاقية السلوك العام .

فما يسميه المناريون « بالرئاسة » و « القيادة » هو ما يعبر عنه البعض بـ « القوامة » إذ يؤكدون أن قاعدة سلامة الأسرة هي أن تكون القوامة بيد الرجل ، ويعطي المؤلف على ذلك ما يسميه بدلائل ، منها : « توقان المرأة إلى قيام هذه القوامة على

---

(١) ننقله عن سعيد الأفغاني ، نفس المصدر السابق ص ٥٥ .

(٢) الترمذي ، سنن .

(٣) ابن هشام ، سيرة ، ج ٣ ص ٤١٦ .

(٤) انظر هنا الصفحة السابقة .

أصلها الفطرى فى الأسرة ، وشعورها بالحرمان والنقص وقلة السعادة عندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القوامة»[١] . يلاحظ السيكولوجيون أن المرأة المعاصرة، على عكس ما كتبه هؤلاء ، تشعر بالحرمان كلما استبد الرجل بـ « القوامة » .

* * *

كثير من خصوم المرأة (وخصوم المرأة خصوم للإسلام ، بالضرورة) ، يحتجون بأحاديث لا يطمئن لها المنطق السليم لما فيها من تناقض ينبئ عن الزيف . . .

لقد اتخذ زعماء الإسرائيليات من وضع الأحاديث سلاحاً لتهديم الكيان الفكرولوجى الإسلامى . فـ « الحرب خدعة » ، وقد خدعوا الإسلام بتوجيه مبادئه على نحو مغاير لواقعيتها ، وبتقليص آفاقها . وإلى جانب الإسرائيليات ، تدخلت العوامل السياسية بين الشيعة والعثمانية وغيرهما من الطوائف الدينية التى تجندت لتحقيق أهداف سياسية . ومثال واحد يكفى للبرهنة على ذلك : تزعمت أم المؤمنين عائشة الهيئة المعادية لعلى بن أبى طالب ، إلى جانب طلحة والزبير وغيرهما من كبار أصحاب النبى . فاضطر المناوئون إلى عدم مواجهتها مباشرة ، لما تتمتع به من ثقة المسلمين ، فهاجموها ، من الهامش ، بأحاديث تتهم المرأة عامة فى دينها ، وعقلها ، وحسن تدبيرها . من ذلك الحكاية التى رووها عن أبى بكرة :« ما نجوت من فتنة وقعة الجمل إلا لما تذكرت من قول رسول الله: لم يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . حقاً ، يروى البخارى فى صحيحه حديثاً بالصيغة الآتية : « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » ، إلا أن التأويل الصحيح هو ما حمله عليه كبار الفقهاء ، من بينهم ابن حزم الذى قصر معنى الحديث على تجنيب المرأة « ولاية» أو رئاسة الدولة (أى الخلافة العظمى) فحسب ، أما بقية المناصب فيجوز للمرأة أن تتولاها ، دون أية معارضة شرعية[٢] .

إلى جانب وضع الأحاديث ، من لدن حركة الإسرائيليات والهيئات السياسية نجد عملية زيف ، من نوع آخر ، تحرص على تأويل أقوال النبى تأويلاً موجهاً مغرضاً . من ذلك ما روى عن عائشة أنه جاء رجلان فادعيا أن أبا هريرة يتحدث أن النبى كان يقول : « إنما الطيرة فى المرأة ، والدابة ، والدار » ، فطارت شقة

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٦٠ ط ٢ .

(٢) فأبو بكرة ، إما أراد التدجيل على المسلمين ، انتصاراً لعلى ، وإما انخدع بحديث موضوع .

من أم المؤمنين فى الأرض ، وقالت : « والذى أنزل القرآن على أبى القاسم ! ما هكذا كان يقول ! إنما قال : كان أهل الجاهلية يقولون : الطيرة فى المرأة ، والدابة ، والدار »[١] .

فالاختلافات بين الرجل والمرأة (كالحيض ، والحمل ، والولادة ، والرضاع) اختلافات لا ينكرها الإسلام ، إنها خاصيات فيزيولوجية لا تضعف القوى الجسدية لدى « الجنس اللطيف » ، بل تعطيه مناعة ضد كثير من الأمراض (نسبة طول عمر المرأة أعلى من عمر الرجل ، كما ثبت ذلك بالإحصائيات ، على المستوى العالمى) . ثم إن آلام الحيض ، والحمل ، والمخاض ، والوضع ، تكسب المرأة قدرة خاصة على تحمل الآلام لا يعرفها الرجل .

---

(١) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٢٣ .

هـ – بين الأموسية والأبيسية

ربما عارض بعضهم بما جاء فى تفسير المنار « من أن الله قد فضل : « الرجال على النساء فى أصل الخلقة ، وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة . فكان التفاوت فى التكاليف والأحكام أثر التفاوت فى الفطرة والاستعداد »[١] .

إنه ، على ما يظهر ، اعتراض مردود على أصحابه ، لأن العلم قد اكتسب معطيات كثيرة ومتنوعة لم تكن معروفة قبل الحرب العالمية الأخيرة ، فبالأحرى لدى معاصرى الأستاذ الإمام الذى قام بدراساته التفسيرية الاجتهادية فى أواخر القرن الماضى . لو عاش الأستاذ الإمام أحوال يومنا لكانت نظرته إلى الوضع غير ما كانت فى أوائل هذا القرن ، تطبيقاً لمبدأ الاجتهاد الذى يقضى بوجوب « تغيير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة » ، كلما حدث ما ترتبت عليه مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله »[٢] . فالمجتهدون يعملون ، دائماً ، بالقاعدة الأصولية « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » . فنحن اليوم فى مفترق الاختيارات : إما أن نسهم فى تنظيم المساواة فنوجهها ، وإما ستتم ، بالرغم عنا ، وفى اتجاه لن نرضاه ، ولن يرضاه الإسلام لنا .

• • •

إن ما رويناه عن تفسير المنار يعكس موقفاً تحريرياً ، وفى الوقت نفسه مظهراً من مظاهر التشبث بالأبيسية ، عن غير قصد وبكيفية غير مباشرة . ولقد ثبت ، علمياً ، أن اتجاه البيئة المتحضرة المعاصرة ينزع إلى القضاء على مواريث النظامين : الأموسى والأبيسى ، ليؤسس بنيات مجتمعية جديدة ، على معايير وقيم تفترض المساواة التامة بين الجنسين .

فما موقفنا من هذا ؟

• • •

السؤال يفرض نفسه على كل باحث ، مسلماً كان أو غير مسلم . فنحن .

---

(١) ج ٣ ، ص ٦٧ .
(٢) ج ٤ ، ص ٣٥٠ .

كشهود عيان ، إذا أردنا أن نتجنب سياسة النعامة والعبث ، لزمنا أن نسجل الظاهرات المجتمعية فى البيئات المعاصرة كما هى .إنها تثبت (والأيام لا تزيد ذلك إلا تأكيداً) : أن النظام الأموسى قد دخل فى خبر كان ، كما أن كهولة عصر الأبيسية تهوى نحو الشيخوخة والهرم . لقد ظهر تفتح نظام جديد تتكامل فيه الأبيسية مع الأموسية ، داخل نسق جديد يخفق شباباً وحماساً . فلن يجدينا ، والوضع هو هذا ، أن نترك خرير نهر النظريات يلهينا عن تلاطم أمواج بحر الواقع . علينا أن نسترشد ، قبل فوات الأوان ، فنضع أقدامنا فى ممشاة نختارها ،عن دراية، تقينا المزالق . أليس الإسلام « صالحاً لكل زمان ومكان » ؟

* * *

تلك هى بعض مشاكل المرأة ، كما توضع اليوم، عرضناها فى نطاق إسلامى متحيِّن (actualisé) . لكن ، إلى جانبها ، اعتراضات توجه إلى الإسلام ، من الخارج (بالإضافة إلى التى تعرضنا لها) نود أن نختم، مشيرين ، إلى إحداها لأنها أكثر التصاقاً بموضوعنا .

و – المسلمة والحياة الجنسية

يعتبر بعض الغربيين المرأة المسلمة شيئاً من متاع الرجل لا يتعدى أن يكون موضوعاً لشهواته ، إذ يرون أن أخلاقية الإسلام لا تخرج عن دائرة الجماع ، وأن ليس هناك ، حسب رأيهم ، ما يدعو الزوج إلى جمع غرائزه (الجنسية المتهيجة) [١] .

لقد تغافلوا عما يذكره القرآن من فضائل المؤمن الصادق ، مثل الطهر ، والتقوى ، والعفة . فهل من اللازم أن يستعمل القرآن كلمة « جمع » الشهوات ، أو ما يقابلها فى اللغات الأوربية ، بحروف لاتينية أو يونانية لنستطيع أن نؤكد أن فى الإسلام واجبات أخلاقية ؟ ! . . .

الإسلام واقعى ، لهذا يكره العزوبة ، ويرى فى الزواج حصانة ضد الزنى ومنبع المحبة والتضامن اللذين يولدان فى الأسرة ، ثم ينتشران فى مجموع الأمم . أوليس التكيف مع الحقائق الإنسانية من الواجبات الأولى ؟ . . . فالحياة الجنسية تلعب دوراً أساسيًا لدى الكائنات الحية ، وكل معارضة للطبيعة إخلال بالأجهزة المعنوية والنفسانية .

* * *

يحكى القرآن عن خطيئة آدم وحواء والأكل من الشجرة ، بيد أن الإسلام لا يؤيد الاعتقاد القائل بأنها خطيئة أصلية تتابع النوع البشرى الذى بات ، من جرائها ، ذا طبيعة فاسدة مدنسة[٢] . فالأهواء ، حتى الشهوانية منها ، والرغبات الطبيعية ، كلما كان إشباعها باعتدال وفى حدود العفة ، اتفقت مع الأخلاقية الإنسانية ، لأنها عناصر من صميم طبيعة الإنسان .

فالواقعية ، إذن ، تفرض على كل مجدد مسلم أن لا يخجل من الاهتمام الذى أعاره الإسلام للغريزة الجنسية : إن معطيات الدين الإسلامى فى مستوى الكائنات البشرية . فتفضيل الزهد والعفة على الزنى قاعدة من قواعد الدين الأساسية ، لكن العزوبة ، عن عقيدة وقناعة جنسية ، مكروهة ، لأنها معاكسة للطبيعة .

---

(١) من أولئك السيد ، Kem-Kamp الذى يذكره الأستاذ بوسكى Bousquet فى كتابه « الأخلاق والأخلاقية الجنسية فى الإسلام » ، ص ١٠١ باريس ١٩٥٣ .

(٢) سنحلل هذا الموضوع فى الفصل المتعلق بمشكل الشر (انظر ، فيما يلى ، القسم الثانى الفصل الثانى) .

الفصل الثالث

الرق والذمة فى الإسلام

نصل الآن إلى مشكل أخير ، هو الرق والذمة :

كيف يمكن التحدث عن الشخصانية فى بيئة تسمح شريعتها بممارسة الرق والذمة ، برغم ما فيهما من حط بكرامة الإنسان ؟

* * *

١ — الاسترقاق

ألمْ تنف الشخصانية عن الرومان والإغريق ، باسم معادة الاسترقاق[1] .

حقًّا ، إن الإسلام ، فى بدايته ، لم يلغ الرق بكيفية نظرية مبدئية ، أو بأصح عبارة ، لم يستطع أن يفعل ذلك . فما قيل سابقاً عن المظهر الأنطلوجى والمظهر الروحى للشخص ، ينطبق تماماً على العبد وعلى الحر ؛ لكليهما روح ، من ماهية واحدة ، خلقها الإله الأحد ؛ وكلاهما عبد من عباد الخالق . فليس الفرق بينهما نوعيًّا ، وإنما هو عرضى لا يتجاوز الوضع المجتمعى والقانونى لكل واحد . على أن هذا الوضع القانونى قد دخلت عليه كثير من التعديلات الإصلاحية ، كما هو واضح فى مجموعة من الأحاديث والآيات . فتحرير شخص ما يعد تقوى وعملاً ذا قيمة أخلاقية عظمى : « . . . وما أدراك ما العقبة ! فك رقبة » . . (البلد ٩٠ آية ١٢ و ١٣) .

إن الإسهام فى تحرير الرقاب لأفضل ما تصرف فيه الزكاة . أما العبيد ، من غير المسلمين ، فيسترجعون كامل حريتهم وإذا نطقوا « بالشهادة » ، إذ الشهادة تكسب صاحبها الحرية . فإذا رفض العبد الدخول فى الإسلام ، تبقى له ، برغم ذلك ، إمكانيات أخرى للتحرر . يستحب للتائبين أن يحرروا الرقاب ، أو يساهموا فى تحريرها : « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من

(١) انظر : هنا ، ص ١٥ و ١٦ .

قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به . والله بما تعملون خبير » (المجادلة ٣٨ آية ٣)[١] .

وإذا عامل سيد عبده معاملة سيئة ، وجب على القاضى أن يحرره ، دون اعتبار معارضة السيد . ولقد أوصى الله المؤمنين بأن يحرروا الرقيق بواسطة التعاقد : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم ، فكاتبوهم ، إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » . (النور ٢٤ آية ٣٣) . إن العبد شخص . لذلك يحرم ، تحريماً قطعياً ، أن تمس كرامته أو أن يرغم على الفحش . فالإسلام يرحب ، أيما ترحيب ، بالزواج بالعبيد ، بقدر ما ينهى عن إرغام الأمة على البغاء : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ، إن أردن تحصناً ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » (النور ٢٤ آية ٣٣) .

فبمجموع المواقف فى السلوك اليومى يعترف المسلم للعبد بكرامته كشخص إنسانى . والواقع أن ليس هناك إلا سيد ، واحد أحد ، وعبيد : الله من جهة ، ومجموع البشر من جهة أخرى[٢] . فالسيد (أى الحر) مطالب بأن لا يخاطب الرقيق بلفظة « عبدى » أو « أمتى » ، بل يوصيه الإسلام بمخاطبتهما بـ « غلامى » ، و « خادمى » أو « خادمتى »[٣] . ويطلب منه ، كذلك ، أن لا يحمل العبد أعمالاً شاقة ، وأن يعامله بعدالة وإحسان : « وبالوالدين إحساناً [. . .] وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحبُّ من كان مختالاً فخوراً » (النساء ٤ آية ٢٦).

ومن مظاهر هذا الإحسان أن يسامح السيد عبده سبعين مرة فى اليوم ، كما حض على ذلك حديث نبوى : إنها دعوة إلى الرفق والتسامح .

وإلى جانب هذا الاتجاه الإنسانى ، وهاته العناية التى يحيط القرآن بها الرقيق ،

---

(١) انظر كذلك : (النساء ٤ آية ٩٢) .

(٢) لم يستعمل القرآن قط الكلمات المشتقة من جذر (ر . ق . ق .) الذى يعبر على الاسترقاق ، والاستعباد ، والاسترقاقية ، بل استعمل جذراً آخر (ع . ب . د .) الذى يدل على العبادة (العبادة الخاصة بالله) ، واللطف ، والخضوع . وعندما يتحدث عن القضاء على العبودية والاسترقاق ، يستعمل الجذر (ح . ر . ر .) الذى تأتى منه الحرية ، والتحرير والتحرر ، عوضاً عن الجذر (ع . ت . ق .) الذى يعنى العتق والتسريح .

(٣) جاء فى باب العتق (البخارى ، صحيح) « لا يقل أحدكم : أطعم ربك [. . .] ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى ، وفتاتى ، وغلامى » .

نجد أحاديث تزيد ذلك تأكيداً . فكثيراً ما صرح الرسول بأن العبيد إخوان لجميع الناس : كان بلال أول مؤذن فى الإسلام ، ومن أول الصحابة المقربين ذوى الصدارة مع أنه أسود البشرة ، عبد حبشي قد أعتق . وأخيراً ، يجب اعتبار العبد كواحد من أفراد الأسرة ، فيقاسم السيد وأهله اللباس والطعام[١] .

هكذا ، قد بذل الإسلام مجهوداً كبيراً للتخفيف من عبء الاسترقاق وإضعاف حدته ، لا سيما للعمل على إرجاع الشخصية الإنسانية للعبد وجعلها واعية عنده ، ومعترفاً بها من لدن الآخرين .

---

(١) خصص الأستاذ (برانشفيك R. Brunschvig) بحثاً هاماً عن الرقيق فى الإسلام ، من وجهة نظر التاريخ والقانون والأخلاق (فى انسكليوبيدية الإسلام . ط ٢ الفرنسية مقال : « عبد » ، الكراسة ١ ، فصل ١) .

ب — الذمة

فى هذا النطاق ، من الطبيعى أن يتمتع أهل الذمة ، هم أيضاً ، بكامل شخصيتهم فى مظاهرها المختلفة : حرية الدين ، والحق فى الثقافة ، واحترام لغاتهم وأعرافهم وقوانينهم الشخصية . فمعابد ، ومقابر ، ومدارس ، ومحاكم أهل الذمة تتمتع بنفس القداسة التى لمساجد ومقابر ومحاكم المسلمين .

يضمن الإسلام للذميين حرمة الأشخاص ، والممتلكات الدينية والثقافية والمادية ، لأن شريعة القرآن تعتبر قانون الذمة نوعاً من الضيافة بتعاقد . فإن كانت قد فرضت على الذميين الجزية ، فذلك فى مقابل حمايتهم ، أى أن الجزية ضريبة يسهم بها الذمى فى تمويل المصالح العامة المشتركة .

فالذميون غير ملزمين بالتجنيد للدفاع عن الوطن المشترك ، فعلى جيوش الدولة أن تصونهم من كل عدوان .

يصرح النبى ، دون التباس : « من ظلم معاهداً ، وكلفه فوق طاقته ، فأنا حجيجه إلى يوم الدين »[١] .

وحتى قبل أن يصبح الذمى معاهداً ، أى مواطناً للمسلمين ، يلزم هؤلاء أن يحترموه ويصونوا مقدساته ، طبقاً لأوامر الخليفة أبى بكر ، مخاطباً أول جيش توجه للخارج محارباً : « . . . لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً ، ولا امرأة [. . .] وسوف تمرون بأقوام ، قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً فاذكروا الله عليها »[٢] .

* * *

فلا يجوز قتل الذمى ، فى حال من الأحوال إلا إذا ارتكب الجريمة الكبرى ، لأن عقاب الجاسوس هو القتل ، كان مسلماً أو غير مسلم . إن التجسس ينقض التعاقد . فالفقهاء قاطبة يطالبون بعقاب أى أحد يظلم ذمياً ، ولكنهم يقررون أن المعاهدين أو الذميين ، إذا انتقضوا العهد أصبح حكمهم حكم الحربى ، فيحاربهم

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٦٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

الإمام بعد بلوغهم مأمنهم . ذاك هو أوضح انعكاس للأخوة الإنسانية التى يفرضها الإسلام على كل مؤمن صادق نحو الذمى .

أما المعنى القانونى والمجتمعى للجزية ، فيتجلى فيما روى عن قائد الجيوش ، أبى عبيدة ، على عهد عمر بن الخطاب . حشد هرقل جيوشاً ، لمقاتلة المسلمين ، فاضطر أبو عبيدة أن يسحب قواته من مدن الشام ، وأمر عماله بأن يردوا إلى الأهليين ما كان أخذ منهم من جزية ، وأن يخبروهم :

« إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما أجمع لنا من جموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نؤمنكم ، وإنا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم[١] » .

* * *

وأخيراً ، إن الذمة تساكن ، والتواجد يخلق روابط تعامل وتعاون ومودة ، بحكم المواطنة ، مما يقضى على العصبيات ، خصوصاً ونبى الإسلام يدين ويندد بالعصبيات : « ليس منا من دعا إلى عصبية »[٢] .

ثم هناك مبدأ نبيل آخر ترتكز عليه الأخلاقية الإسلامية : قداسة الجوار ؛ والذمى جار ، ففى الجامع الصغير للسيوطى ، أن نبى الإسلام قال :

« الجيران ثلاثة : فجار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقًّا [. . .] فأما الذى له حق واحد ، فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار »[٣] .

---

(١) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٢ ، ص ٨١ .

(٢) التاج الجامع للأصول ، « كتاب البر والأخلاق » ، نقلا عن المرشد فى الدين الإسلامى ، ج ٤ ، ص ٢١ .

(٣) ج ١ ، ص ١٤٦ ، ط عبد الحميد حنفى .